

زنبقة الغور

رواية اجتماعية متتابعة

✽ بقلم ✽

الرجائي

— ملخص ما نشر سابقاً —

فرت ساره من بيت ابيها فجاء الى مدينة جنين لحادث اصابها واضطرت زوجة ابيها عليها وظلها . فافامت في قرية في مرج ابن عامر لتستر عارها ريثما يتقضي امرها . فولدت طفلاً ميتاً ثم رحلت لتفقد ابن بلدها المعلم الياس بلان في قرية صفور به فعملت انهُ غادرها وتوهم سيف الناصرة فقصدته في ديره طالبة مساعدته فوضعهما في الدير لتخدم . ثم استيهواها فاستسلمت اليه . وفرت بها من الدير الى قرية كفر كنا وقد وعدوها ان يتزوجها ولكنه تركها هناك فغادراً بها وهرب الى لبنان . فوضعت ساره بفتك وجاءت بها الناصرة فنبذتها عند باب دير الايتام . وراحت تفش عن خادعها في لبنان وسوريا فلم تجده فعادت بعد سنتين طوبلة الى الناصرة فراها النفس جبرائيل مبارك في باب ديره فارتعش وعرف بها الفتاة التي اغواها في صباه يوم كان ابوها جماً لا يتقدم اباه سرفه جنين . فكتمها نفسه ورق لها فادخلها الدير لتخدم فيه . وهناك تعرفت بفتاة تدعى مريم تخدم في دير الايتام فحنت لها جوارحها . وبينما ساره نائمة اثناء رعيها المواشي لدغتها حية واشرفت على الموت . فاستدعت النفس جبرائيل واعترفت له وتوسلت اليه ان يستدعي مريم لتودعها واوصته ان يسأل عن اصلها ويعتني بها فودعها النفس خيراً وكشف لها نفسه مستغفراً عما جناها عليها في صباها . ووضع النفس مريم تحت عنايته حسب وصية ساره فسالها عن حياتها سيف الدير فشكت اليه ما تقاسيه هناك من القسوة . فرق لها وبخاير الرعية بشأنها . وخرج حائفاً مستاءً مما شاهده من فساد ملاجي الايتام .

— تابع ما قبله —

وصل الى الدير فدخل الكنيسة وسجد امام القربان المقدس ساعة • صلى صلاة المساء ثم طفق يتمشى في الرواق وسبحته في يده •
— « ابانا الذي في السموات اغفر لنا ذنوبنا • لا تدخلنا في التجارب • نجنا من الشرير امين »

ثم دخل حجرته واشعل شمعة فيها واخذ كتاب « الاقتداء بالمسيح » وظل يقرأ فيه حتى نصف الليل • ونام عندئذ مطمئن النفس • هادئ البال • كأن لم يحدث ذلك النهار امر ما خطير • كأن لم يطلع على اسرار تجعل الحياة البشرية لعنة في الارض • ولكنه حلم حلماً مزعجاً تلك الليلة سمع فيه صوتاً يكلمه قائلاً • اترك الفتاة مريم في الدير • خير لك ولها • فاستفاق القس جبرائيل مدعوراً ورسم شارة الصليب مستميناً بالله • — « ابانا الذي في السموات لا تدخلنا في التجارب • نجنا من الشرير امين » ثم اشعل الشمعة وفتح « الاقتداء بالمسيح » ققرأ بضع صفحات ونفسه مضطربة وفكره متضعضع • فنهض من ساعته ولبس ثوبه وخرج الى الرواق يصلي صلاة الفجر •

وفي تلك الساعة أشعلت الزهراء مصباحها الذهبي فوق قمة طاوور • فلمست أشعته عين المرج النائم في مهد الجبال بين السامرية والجليل • فاستحال اسمرار وجهه اصفراراً عليه غشاء رفيع من نسج الندى والنسيم • وكان ربع القمر قد دنا من البحر وقد احمرت جوانبه فشابه سيفاً مخضباً ، او قلامة

ظفر محنى ، او قطعة بطيخ على طبق من اللازورد ، وجبال عجلون وقد
نظرت الى القمر والزهر ، قبلها اخذت تخلع سراويلها السوداء لتستحم بنور
الفجر الذي يبدو كذوب الرصاص فيسيل كذوب اللجين فيتدفق كمصير
الرمان .

وقف القس جبرائيل في رواق الدير فاسكره هذا المشهد البهيج وانسأه
صلاته ، بل حرك لسان النفس فيه فنطقت بصلاة اسى واجمل . نظر الى
الحقول حوله فرآها تهتز جذلاً ، وتهاوج حباً ، وتتلأأ على صدرها
قبلات الندى . نظر الى الناصرة على منحدر الجبل تحته فاذا هي نائمة
مطمئنة هادئة آمنة ، تمطر احلامها الازهار اليقظى في مصاطب البيوت
وجنائن الاديرة ، وتهادى حولها اغصان الزيتون يقبلها نسيم الليل ، وتداعبها
انامل الصباح .

ثم طرقت اذنه اصوات الفجر وقد خرجت من سكينه الليل تشاطراً
الجبال والمروج افراحها . في طيقان القناطر فوقه وتحت القرميد يعشش
الحسون والسنونو فسمع حفيف الاجنحة وزقزقة الصغار في اوكارها .
خرجت الام تسعى لصغارها وهي تسبح جذلة طرية . وقرع جرس احدى
الكنائس التي يقدس كاهنها باكراً من اجل الفعلة فيصلون قبل ان يسيروا
الى اشناهم في الحقول . وفي حارة الاسلام رفع المؤذن صوته الرنان وهو
يدور في مأذنته كالشمس في فلكتها فتردد الجبال شرقاً وغرباً صدى كلماته .
هيو على الفلاح ؟ هيو على الصلاة . وهناك على ذاك السطح رأى شيخاً

يفرش سجاده ليصلي صلاة الفجر . بسم الله الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . اياك نعبد واياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم . رآه . يسجد سجده فشاركه القس جبرائيل بصلاته . وعلى سطح آخر أحيطت به مصاطب الصبق وازرياحين اناس يشربون القهوة ويدخنون الاركيعة وهم يمزحون ويضحكون . وفي الطريق خارج الناصرة تسمع اصوات القافلة فيردد المكارون الادوار على رنات اجراس البزال ويضحكون ضحك ابناء القلوات وقد خلت قلوبهم من المصوم وملاً نسيم الصباح انفسهم فزادها سروراً ونشاطاً . وفي طريق العين رأى القس جبرائيل امرأة تحمل الحجرة على رأسها والسبيحة في يدها . خرجت من بيتها باكراً كما خرجت الحسنة من وكرها . تسمى لصغارها .

توهج الفجر فابقظ الارض وبنينا ، فرددت القوافل والاجراس والموءذنون والاطيار صدى اصوات التسبيح بل صدى اصوات تلك النفوس البسيطة المخاشعة الصافية ، فهتف الراهب قائلاً . ما اجمل هذه الساعة وما اقدسها حيناً لقلوب يسكرها سكوت الفجر واريجه وانفاحه وانواره . ليت الحياة ساعة من ساعات الفجر !

وفي تلك الاونة مرت فتاة تحت رواق الدير مسرعة واجفة فطرقت اذن الراهب خطواتها ولم يكثر . بل رفع صوته يصلي - اجعل اللهم حياة البشر هادئة صافية كفجر يومك . ارفع اللهم قلوب البشر الى جبال قدسك ، فيجلوها نسيم الحب ويعطرها اريج السلام .

سمعت الفتاة الصوت فعرفته فدخلت الدير مسرعة مستبشرة
 - سدد اللهم خطوات المصعدين في جبالك . وطمه اللهم مقاصد
 الشاخصين الى نجم فجرِكَ . خفف اللهم بوءس البائسين . أنر طريق الضالين .
 اطلق سراح المأسورين -

وكانت الفتاة قد صعدت اذ ذاك الى الرواق فسارعت الى القس جبرائيل
 تقبل يديه وتصرخ

- دخيلك . دخيلك . لا ترجعني الى الدير

- مريم ! مريم ! ماذا جرى ؟

- دخيلك . دخيلك . هربت من الدير . مساء أمس بعد ان تركتني
 استدعيتني الرئيسة الى غرفتها وضربتني حتى كدت اموت لانني شكوت
 مصيبتني اليك .

- وكيف خرجت ؟ وكيف جئت الى هنا . من ذلك ؟

- الله خلصني والله دلني . جئت افتش عنك . فأسمعني الله صوتك .
 سمعت صوتك فعرفته . دخيلك ما لي غيرك . لا ترجعني الى الدير . اموت
 ولا ارجع .

- ليطمئن بالك يا بنتي . سكني روعك . تعالي معي

ومضى القس جبرائيل قدامها الى الكنيسة

- ادخلي يا بنتي . صلي ليوقفك الله . وانتظري في الكنيسة الى ان اعود



(الفصل الثالث)

. . .

في الحياة قوة خفية تجمع الناس وتفرقهم لغرض غامض قلما يُدرك سره . بل في الحياة سحر قد يكون ساموياً وقد يكون جهنمياً يجذب الاضداد بعضهم الى بعض ويوقد في قلوبهم شعلة الحب التي توحد بين اكبر القلوب واصغرها وانورها واطلمها . ليس بين بشرين تناقض ابلغ واشد مما بين النفس جبرائيل واخيه يوسف افندي مبارك العضو المسيحي في محكمة الناصرة والنوحية المقدم في قومه . وهذا التناقض الروحي والعقلي يزول دائماً عند المصافحة .

يوسف افندي في العقد الرابع من العمر طويل القامة قوي الساعدا دموي المزاج . جاحظ العين . ضيق الجبين . طلق المحيا . كريم النفس بسيطها . ثلاثة في الحياة تهمة فوق كل شيء وتستهويه . ثلاثة يحذر منها الانبياء . وينشدها بعض الحكماء . ويتغزل بها الشعراء . ويوسف افندي لا يحفل كثيراً بما جاء في الكتب المقدسة ولا في دواوين الشعر فهو لا يميل الى المطالعة ولا يهيمه الادب والادباء . يشره الى اللذات لتريزة فيه . ويرغب بطيبات الحياة دون ان يتأثر بها . جليسه اخوه . وضيغه سيده . لطيف المزاج . خفيف الروح . كبير القلب . يقدس الضيافة والالفة ويمجد الوجه الوسيم والمائدة الفخمة . ولا عزيز عنده أعز من قنينة معتقة وصديق « معتق » . يشاركه شربها .

على ان انهماكه باللذات واسترساله في الشهوات لا تصده عن القيام
 بواجباته البيتية والعمومية . فيسعى في سبيل الحق وفي سبيل الناس معه
 استطاع . وقد امتاز عن زملائه مأموري الحكومة باستقامة ضميره وطهارة
 ذيله . فاحبه الناس لعدله ونزاهته . واحبه زملاؤه لكرم نفسه وخفة روحه .
 وما اشبه بيته بنادٍ لآخوانه واقربائه بل ما اشبهه بنزلٍ لكل لائمه بعدله
 واحسانه . ولا يُنكر ان بعض السعاة والوشاة كانوا يقولون ان بيت يوسف
 مبارك عش للدسائس وملطأ للمعائر . على ان المقيم في جواره . النافر من
 دخان ناره . قد يخطئ . الظن اذ يرى الروساء دينيين ومدنيين من رهبان
 وكهان ومأمورين يؤمونه داره حياً بنبيذه المعتق وشفقاً بطاولة القمار التي
 ترأسها زوجته الست هند — او رغبة في فنجان قهوة فقط من يد احدى
 جواريه الرعايب .

ويوسف افندي يحترم اخاه الراهب احتراماً لا غش ولا تكلف فيه .
 ويرتاخ الى حديثه . ويجنح غالباً الى رأيه . ولم يكن القس جبرائيل
 ليرتاب مرة في حبه لآخيه يوسف . ولقد طالما قال في نفسه . بيت اخي
 مثل دبري . وحبذا كرمه وعدله واحسانه في سبيل اخواني الرهبان . ولقد
 أدرك كلا الاخوين شيئاً من الحقيقة في نفسه وفي اخيه ولم يدر كها كها .
 فالسيئات تولد الحب مثل الحسنات . وضعف المرء يزين الضعف في سواء .
 اجل . فان المرء يستأنس بنقص في اخيه شبيه بنقص فيه ناسك يجوع
 جسده . وخليع يجوع نفسه . فالجوع اذاً يجمع الاثنين ويؤلف بينهما

لما ترك القس جبرائيل مريم في الكنيسة جاء مواءاً الى بيت اخيه فراه
 يدخن الاركيلة ويشرب القهوة في فناء الدار وهو متربع على الديوان لابس
 فوق قميص النوم عباءة حرير زرقاء . فنهض هاتفاً اذ رأى القسيس اخاه .
 ما شاء الله ! ما شاء الله ! على غير عادتك يا شيخ . ولكن الرهبان ينهضون باكراً
 - صحيح . وينامون نصف النهار . الساعة الثالثة بعد الظهر هي نصف
 الليل عندنا .

- هنيئاً لمن ينامون . انهكني الارق . حرق ديني . وصفق كفاً على
 كف فحضرت الصانعة .

- هاتي جبرة . واعلمي اركيلة وقهوة للقس جبرائيل .

- لا . لا . لم اقدس بعد .

- عجيب امركم . ألا تشربون الخمر في القداس وتحرقون البخور ؟
 فالقهوة نوع من الخمر . والتبك مثل البخور . يسرها . هاتي يا بنت
 اركيلة وقهوة .

- يظهر ان الارق ينفعك . أفلا ترى انه يشجذ قريحتك ويجلو نفسك ؟
 ولعمري ان من يحسن الاسخان - فقاطعه اخوه قائلاً -

المصيبة يا شيخ انك دائماً تدور الدورات - ممتطياً صهوة القضاة -
 هذه عبارة عربية تعجيبك - سمعتها البارح ففلقت ذهني وعلقت فيه -
 انزل اذاً عن ظهر القضاة واجلس الى جنبي . فاني والله مشتاق اليك .
 ما زرتنا منذ شهر . واذا كنت تريدنا بالملعة فاعلم ان حضورك وليس

الاراق يشعذ القريحة ويجلو النفس .

وجاءت اذ ذاك صانعة حسنة الوجه والقدر والحركة تحمل اركيلة
عجنية فخمة في مائها ورد وياسمين فاثبتتها على السجادة وقدمت التريش
ويدها اليسرى على صدرها الى القسيس فأخذه باسماً والقي به على الديوان .
ثم جاءت صانعة اخرى بفتحجان من القهوة في ظرف من الفضة على صينية
من النحاس الشامي الثمين . فأخذه القس جبرائيل واستنشق منه قليلاً
وقدمه الى اخيه قائلاً .

— بنكم عاطل جداً .

— وعذرك مثل بننا . بالله قل لي . ما الفرق بين الاستنشاق والشرب
وبين الشم والذوق . هل القم لك والانف لغيرك ؟

— ما جئت هذه الساعة ابحاثك في علم الفيزيولوجيا . كم خادمة
عندكم اليوم .

— عرضنا كل ما عندنا الان

— اثنتان فقط .

— والطابخة — ولكنك تعرف امرأة اخيك فقد تطرد واحدة منهم
او تطردهن كلهن غداً . فهي لا تطيق خادمة عندها اكثر من شهرين
والخادومات لا يطقنها يوماً واحداً
— اعرف فتاة تمجيك .

— لا يفيد . ينبغي ان تعجب الست هند

— وهذا ما اعنيه . تعجبها كثيراً . فتاة ذكية فهيمة خفيفة الحركة
نشيطه بارعة . ولكنها عنيدة . وينبغي لكم ان تداروها في اول الامر . الفتاة
عزيزة علي . وقد أوصيت بها وهي لا تحب ان تخدم في الدير . واحب ان
تخدم عندكم لتظل تحت مراقبتي . اوصيك بها خصوصاً
— وكم عمرها ؟

— ست عشرة سنة

— وهل تحسن الخدمة ؟

— كانت تخدم في غرفة المائدة

— واين هي الان ؟

— عندي . تنتظرنني في الكنيسة . ساجيئكم بها بعد القداس

وهم القس جبرائيل بالانصراف . فمشى اخوه معه حتى الباب ثم قال

— وما هذه الاشاعات التي يشيعونها عنك . كيف حالك واخوانك

الرهبان ؟ سمعت البارح ان رئيس الدير ينوي ان ينقلك الى لبنان

— لبنان احسن من الناصرة

— والامراة سارة التي توفيت البارح أصبح ما يقال انها —

— هي ام الفتاة التي حدثتك بشأنها

— ام الفتاة ؟ أو لم تكفك الام وما اشاعوه عنها وعنك ؟

— الله وحده يعرف ما في قلبي . الله وحده يدينني . ولا اسألك انت

يا يوسف غير امر واحد ان تساعدني في تربية هذه الفتاة وان ترمقوها بعين

العطف والحنان وتعاملوها بالمعروف . ساجيئكم بها اليوم .
 وعندما ودع اخاه كانت الست هند خرجت من غرفتها فرأت الراهب
 في الباب . فسألت زوجها ما الغرض من زيارتها فاخبرها . فسرت بذلك
 لانها تتمكن اذا جاءت الخادمة الجديدة من طرد احدى الثلاث عندها .
 اي الجميلة فيهن ..

(ستأفي البقية)



سور فطحية



(الثمرة الممنوعة)
منقولة عن مجلة يابانية



سؤال وجواب
غليوم - الا تفضل بمرافقتي ؟
ملاك السلم - شكراً لك . ولكن نظف يدك أولاً



في غالبسيا
(القوزاقي يرخي العنوان لجواده . ولا
يرده شيء)



(نزعة في بحر الدماء)
الملوك ينتزهون في قارب ربانه عزرائيل
وأيدي ضحاياهم تمتد نحوهم مؤنبه